خليل مطران

الرجل والشاعر

١٨٧٢–١٩٤٩

كأنما كان الخليل ينظر من سجف الغيب دنوّ منيّته ، عندما خاطب تمثالاً لصفيّة له بقوله :

مثالي إنني أرنو إليك وإنّ بي رفقا
دنا أجلي فيا جذلي ولكن أنت قد تبقى
أخاف عليك أن تحيا ومن يحيا ولا يشقى [1] ؟

وصدقت نبوءة الرجل ، فما كادت تنقضي سنتان على هذه المناجاة حتى زفر الخليل آخر أنفاسه وثوى بين ظلال الموت ، وأضواء الخلود .

أجل ، مات الخليل في مساء ٣٠ يونيو ١٩٤٩ بين انتفاضات القلوب الشاعرة ، ولوعات الأرواح المتصوّفة ، ، موته فقد الشرق العربي ، رجولة ممتازة ، وشاعرية نابغة .

وما ريب أن خسارتنا الانسانية والخلقية بفقده ، لا تعادلها إلاّ خسارتنا الأدبية والفنية بموته ، فلقد كان الرجل فذّاً في الأدباء ، إذ توحدت فيه الشخصية بالنبوغ ، واتّسم بخلال قلبية وعقلية نادرة في زملاء ، نحن أحوج فيه الى من يرفع أرواحنا ، ويضرب لنا المُثُل في حب الخير والتواضع والأريحية والايثار .

وهل في أدبنا الحاضر ، أجل وأبدع مما قاله هذا الرجل ، في أواخر أيامه ؟

كان في الشعر لي مرام خطير فعدا طوقي المرام الخطير

---

(١) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك سنة ١٩٤٧ ص ١٦

هائمٌ في الوجود أسأله الوحـ ـي كما يسأل الغبي الفقير
أكبروني ولست أكبر نفسي أنا في الفن مستفيد صغير
لا يضيق صدر شاعر بأخيه يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها ليس تحصى شموسها والبدور
كل جرم يضيء ويصبح نجماً فله حيز وفيه يدور
والنجوم التي تلوح وتخفى ربوات وما يضيق الأثير[1]

* * *

تلكم النفحات الشعرية التي تليت في حفل تكريمه بين الوجوه المشرقة، نتلوها اليوم بين الحسرات المكتومة، ونجد فيها العبرة، والهمسة الخفية الموحية بأنبل عاطفة، إنها تسير حقّ لفطرة الرجل الأصيلة، فطرة حلب التي اعتلجت بين جوانحه صغيراً، وراودته شاباً، وسمت ودقت في كهولته وشيخوخته — أنها الشريان الهام في نسيج هذا القلب الكبير الذي ضوأ بالحب النبيل في شبابه وعبّر عن هذا الحب في قصيدته «حكاية مأتمين»[2] وبقيت أعطار هذا الحب بعد موت حبيبته، وأفصح عن بقائه في القصيدة التي ناجى فيها عصفورة رآها في جنيف قرب تمثال جان جاك روسو[3] فقال: —

سيري وولّي صدرك الـ مشتاق شطر المربع
حتى إذا ما جئته وشرعت أعذب مشرع
عُوجي ببستان ضُنا لكِ في الهواء معبّع
لي في ثراه دفينةٌ كالكنز في المستودع
تخفي الأزاهر قبرها عن أعين المستطلع
قولي له إن جئته يا أنس هذا الملتقى
أتُحس في هذا الثرى نبضات قلب موجع؟
هذا حنينٌ من فؤا دٍ محبك المتفجع

---

(١) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك ١٩٤٢ ص ١٤٩
(٢) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٦٠ (٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢١

ولم يقف حب هذا القلب الكبير عند الحب الخاص النبيل ، بل امتدّ ، وامتدّ ، الى حب الموطن الأول ، والحنين إليه حنيناً لاهباً تشهد به طائفة من قصائده ، مثل « قلعة بعلبك » [١] و « التأليف بين القلوب » [٢] و « تشرق » [٣] وتتحدّث به قصائده في موطنه الثاني مصر في مثل « يا مصر » [٤] والى « حافظ ابراهيم » التي جاء فيها قوله : "

« مصرُ » الحضارة والآثار شاهدة ... « مصر » السماحة مصر المجدُ من قِدَم
« مصر » العزيزة إن جارت وإن عدلت ... « مصر » الحبيبة إن نرحل وأن نقُم
جئنا حماها وعشنا آمنين به ... مطمئنين كأن العيش في حُلُم

واكتمل حب الرجل ، واتسع مجاله فشمل الانسانية بأسرها ، وآيات برّه الايجابي . تتناقلها الألسن ، وتنطوي عليها قلوب العارفين ، والآونة الحاضرة ، لا تتيح الكشف عنها ، ولكنا نجد تصير هذا الروح الانساني النبيل مبثوثاً في كثير من شعره . وبخاصة شعره القصصي الذي فتح به فتحاً جديداً في عالم الشعر الحديث ، فإنا لنراه يتألم لمصير هوّادة متسولة تموت مريضة بعد زواجها بعام في قصيدته البديعة « وفاء » [٥] ونلحظه ينعى على العاهر التي تقتل جنينها ، في قصته الشهيرة « الجنين الشهيد » [٦] ونسمعه يترحم على الشاب السري الذي يلقي بنفسه في الماء لخيبة حبه في قصته « المنتحر » [٧] ونلمس ثورته على أحد رؤوساء المذاهب الذي أصرّ على إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تمّت بغيته ، لألحق بولدها البريء العار ، وهذه الثورة الهادئة تضمنتها قصته « الطفل الطاهر » [٨] وهي من أروع قصصه الشعرية على الاطلاق ومن نبع عاطفته الانسانية العميقة ، ومما جاء فيها قوله ، مخاطباً الطفل البريء ، وناهياً على القس العاتي :

يا طفلُ قلّب طرفك المتردد ... أو ما ترى شبحاً عبوساً أسودا
متجسماً لك من وراء ستار

---

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٧٧
(٢) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٠٧
(٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٣٢٨
(٤) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢٦٦
(٥) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٨٤
(٦) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٩٩
(٧) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٥٧
(٨) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٤٦

هذا أساه اليك قبل الموعد وجنى عليك جناية المتعمد
ومن السماء دعاك صوب الغادر
لكن أراك تبش بشة سامح وأراك ترمقه بعين الصانع
ما للهلال وللسحاب السارب

ولسنا نجد تدليلاً على تبيان تأصل فطرة الحب في قلب هذا الرجل الكبير، أقوى وأروع من قصيدته «هل تذكرين»[1] فهذه القصيدة مع حلاوة موسيقاها وجمال صياغتها، تعد الباحث، بعض النبات الأصيلة للخليل، لأنها تروي بعض ذكرياته، ومن هذه الذكريات يجد السيكولوجي مصدراً فذاً لتعرف شخصية الرجل، ورغباته في الحياة[2]، فهو يروي فيها تجواله مع إحدى بنات عمه وقريبة أخرى، وصاحبة ثالثة، وهم في روضة، وقطفهم العنب منها، ثم اشارته به الى الرفيقة الغريبة، ومحاولته إدخال البهجة على قلبها، وعمل لعبة من الصلصال لها في هيئة عصفور، ومما جاء في هذا القصيد عن ذكريات حبه الساذج وطهره البريء قوله:

هل تذكرين ونحن طفلان عهداً زهته كله غُنْمُ
إذ يلتقي في الكرم ظلان يتضاحكان ويأنس الكرمُ
هل تذكرين بلاءنا الحبا حين اقتطاف أطايب العنب
نُعطي ابتسامات بها ثمناً وبنا كفتوتها من الطرب

ثم تساؤله عن النهر في القصيد ذاته يؤيد حبه لجمال الطبيعة، واندماجه فيها، وأنه في ذلك يقول:

والنهر، هل هو لا يزال كما كان لذاك العهد فألفه
يسقي الغياض زُلاله الشجا ويزيد بهجتها تعطفه
ينصب مصطخباً على الصخر ويسير معتدلاً ومنعرجا
يطغى حيال السد أو يجري متضايقاً آناً ومنفرجا

(١) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٣٥.

(2) Adler — What life Should mean to you.

متخللاً خضر البساتين متهللاً لتحية الشجر
متضاحكاً ضحك الجنين لملاعب النسمات والزهر

ثم وصفه لجمال الصاحبة الغريبة وانجذابه اليها يعزز فطرة هذا القلب المتيم في الطفولة وفي ذلك يقول :

ما أنس لا أنس المقيق وقد جزناه بعد السيل نفترج
كان الربيع وكان يوم أحد ومسيرنا متمعج زلج
و« نبيهة » الكبرى ترافقنا مجهودة ضجت من التعب
ولها صويحبة ترافقنا حسناء كل الحسن في أدب
ضحاكة كالنور في الزهر رفاضة كالغصن في الوادي
كرارة كنسيمة السحر ثرثارة كالطائر الشادي

ثم يروي بعد هذا أثر سحر الجمال فيه ، وما أوحى اليه من صنع لعبة لحبيبته ، وفي هذا الصنع دلالة مبصرة على استعداده الفطري لحب الفن والخلق ، وفي ذلك يقول .

حسن تملكني فأدبني ما شاء في قولي وفي فعلي
وبمثل لمح الطرف أكسبني خلقاً وطبني على جبل
أوحى الي ددا أجربه في آية من فطنة ودد [1]
فجمعت صلصالاً أركبه وصنعت عصفوراً لها يدي

ولم يتمالك الشاعر أن يطير إعجاباً وفرحاً بهذه اللعبة التي صنعها على عين حبيبته ، فأبدى عجبه بما جبل ، وان لف هذا العجب في وشاح شفاف من التواضع ، قال :

صورت شبه الفرخ في وكر من غير سبق لي بتصوير
فأتى على ما شاءه فكري ورضيت عن خلقي وتقديري
ما كان هذا الفرخ معجزة فتانة الاتقان والحسن
كلا ولم أجعله معجزة [2] لكفاءة الحذاق في الفن

فهذا القصيد الفريد الذي أطلنا الوقفة عنده ، يحمل جملة دلالات على بعض خلال

(١) الدد = اللعبة (٢) معجزة = ما يعجز الغير عن الاتيان بمثله .

الرجل الأصيلة ، وهي (١) حبه المتأصل في صباه (٢) ونزوعه الى الجمال الطبيعي والانساني (٣) وشغفه باسعاد غيره (٤) وابراز هذا الشغف بطريقة عملية فنية (٥) وعجبه بصنعه ، عجباً مقروناً بالتواضع .

* * *

وهناك سمات أصيلة أخرى غير ما ذكرنا نعتقد أنها حكمت شخصية الخليل ، وهي الحرية ، التي قد تبلغ درجة الثورة ، والاقدام الذي قد يصل الى درجة المجازفة والمغامرة ، والاباء الذي نأى به عن مواطن التذلل حتى في أحلك الساعات ، وثبات خلقه ، وحيويته الدفاقة ، وهذه السمات تجلّت في مراحل حياته ، وتلوّن بها شعره ، وبرزت واضحة جلية في ملامح وجهه .

وأبرز هذه السمات ، وأصلها تحرره ، وجرأته ، وإباؤه ، ولا أدل على تحرره من نفوره من الظلم في يفوعته ، وهجرته بعلبك موطنه الأول الى باريس ، ومساهمته في حركات البعث الوطني والقومي ومناصرته لأعلام الوطنية أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، ونزعته التجديدية في الشعر . هذه كلها من الدلائل الناطقة على روحه المتحررة ، وقصائده الشهيرة « مقتل بزرجمهر [1] التي نادى فيها بالشورى وكراهية الحكم الفردي و « الطفلة البورية »[2] التي روى فيها ابتهال طفلة صغيرة الى الله لنصرة أبيها وقومها في الحرب — و « فتاة الجبل الأسود »[3] التي روى فيها بطولة المرأة ودفاعها عن وطنها وغيرها من القصائد الا آيات بيّنات على أنفته من الظلم ودعوته الى الحرية .

وأبلغ آية على هذه الطبيعة المتحررة في رأينا ، قصيدته التي دافع فيها عن حرية الرأي وحمل على قانون المطبوعات في مصر ، وكان من نتيجة هذا الدفاع أن هدّده رئيس وزارة ذاك الزمان بالنفي ، فكان من الرجل الحر إلا أن أجابه بقصيده الرائع الموسوم بـ « تهديد بالنفي »[4] وهو أصدق شاهد على تأصل نزعته الحرة وفيها يقول :

أنا لا أخاف ولا أرجّي فرسي مؤهبة وسرجي ،

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٩٩ (٢) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٣٢
(٣) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٠٤ (٤) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٩

فاذا نبا بي متن برّ فالطيبةُ بطنُ لجّ
لا قولَ غيرَ الحق لي قولٌ وهذا النهجُ نهجي
الوعد والإيعاد ما كانا لديَّ طريق فلج (١)

وقد صاحبت هذه الروح المتحررة ، نزعتان صديقتان هما الجرأة والإباء ، وقد انعكس أثرهما في عمله وفنه ، ويبدو لنا أنه ورثهما من أمه المقدامة الحساسة ، وتجسمتا في وجنته العاليتين . وتنوء عظم الوجنة ، كما يقول المتفرسون المتعمقون آية الجرأة ، بل المجازفة .

ولا أدل على روحه الجريئة المقدامة من شغفه في صباه بركوب الخيل ، والسبق على متونها ، وقد سبب له هذا الشغف ، أن وقع كما يقول الدكتور اسماعيل أدهم مرة من فوق أحد الجياد فتكسرت بعض أضلاعه ؛ وتهشمت أرنبة أنفه وبقي أثر هذه السقطة في أنفه طول حياته .

وتجلّت شواهد هذه الجرأة في بعض أعماله ، فلقد اشتغل الرجل بعد ترك أعماله الصحافية بالأعمال الزراعية والتجارية ، وقام بالمضاربات ، فكسب كثيراً وخسر كثيراً ، وقد انتهت به إحدى هذه المضاربات إلى خسارة فادحة ، فتوارى في أثرها عن الناس ، وأعرب عن حالته النفسية الآلية بقصيدته الشهيرة الرائعة « الأسد الباكي » (٣) التي جاء فيها قوله :

وكم في فؤادي من جراح تخيفةٍ يُحَجِّبُها بُردايَ عن أعين الناس
إلى عين شمس قد لجأتُ وحاجتي ملاقاة جوٍّ لم يُدنَّس بأرجاس
أُسِرُّ همومي بانفرادي آسًى مكايد واشٍ أو غمائم دسّاس
يخالون أني في متاع حياتها وأيُّ متاع في جوار لدعّاس (٤)

وأروع تصوير لنفسه الحزينة الآبية قوله في القصيد ذاته :

ذروني أُنكِّس هامتي غيرَ متّقٍ ملامة روّاد وشهبة جُوّاس (٥)

(١) انلج = الثلج (٢) بحث الدكتور اسماعيل أدهم « مطران شاعر البرية الابتداعي » للتطف ١٩٣٩ وهو أدق وأوفى بحث عن شعر خليل مطران (٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٢
(٤) الدعاس — الحقير من الارض (٥) جواس : جوجاس وهو الطائف في مكان .

في حُرَّةٍ بكرٍ ضُلُوعي سياجُها أراش عليها سهمه معتد تاسي
أعيد إليها كل حين نواظري وأُخْفِضُ من عطفٍ على جرحها راسي

وأبلغ دليل على هذه المرأة، هو شعره الجديد الذي وثب به وثبة بعيدة، لا يقدر عليها إلا موهوب جريء، وأيًّا قلبنا شعره، وجدنا تجارب شعرية لم يطرقها أحد قبله، وطلاقة بيانية وأسلوبية، وتحرراً من عبودية القافية، لا نعرف شاعراً سبقه إليه، وشاهد هذا التحرر في القافية قصيدته البديعة «فنجان قهوة»[1] التي دبجها في أواخر عام ١٩٠٢، وتُعدّ هذه القصيدة في رأينا آية جرأته الفنية، والبذرة الأولى في الشعر المرسل وقد استهلها بقوله:

البحر ساجٍ والكنيسة سائده والليل داجٍ والمدينة راقده
عمر الظلام عصابها وجلالها وقلاعها وصروحها فأزالها
شبه المحيط المستوى وبقاعه ما لا يرى من ضُمَّه وبقاعه
لا نجمَ في الأفق المحجب سافرٌ خلل السحاب ولا سراج ساهرُ
وإذا أصاخَ الى الجهات مطيفُ سمعاً فلا ركز يحسُّ خفيفُ
إلاَّ خُطا شبحٍ ضئيلٍ هائمٍ كالوهم يسري في خيلة واهم

* * *

ولم يسايِر الخليل في مراحل حياته، وقفات شعوره، ودفعات جرأته، بل كبحت البيئة الظالمة وصروف الحياة، وآلام الرجل وغربته، خلائقه الفطرية الأولى التي ألمعنا إليها، فاتكأ كثيراً على نفسه، وقمع انفعالاته وعواطفه الجارفة، وذلك بقوة عقله وشدة حماسة ضميره، وفي هذا يقول الخليل في حديث له:[2]

«في المعاودة وجدها تاريخ تكوين شخصيتي. فقد كان هناك عاملان يتعلان في نفسي «شدة الحساسية وحماسة النفس» وبهذه الحماسة، أدخل الخليل عنصراً جديداً على نفسه. وتمكن من إيجاد التوازن في شخصيته، وان قلَّل هذا العنصر من حرارة كثير من أعماله الفنية

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٣
(٢) هامش صفحة ٦٤ الدكتور اسماعيل أدم — في كتابه «مطران شاعر الشرق الابداعي».

وآثار هذه المحامية نجدها في بعض قصائده الوطنية التي كان يرمي من ورائها الى اشعال الروح الوطني ، وإن رمز ولم يصرح بهدفه وستر ولم يكشف ، وشاهد ذلك ، قصيدته « شيخ أثينة » [١] وهي نذير الى أهل أثينة الأذلاء لمقاومة استعمار الرومانيين الغاشم ، وقد اتخذ — كما يقول الأستاذ العزيزي [٢] « شيخ أثينة » ينفث في كل بيتٍ من أبياته روحه المتألمة لذل قومه ، كما اتخذ من قصيدة « مقتل بزرجمهر » السابق التنويه بها ، أداة لإبراز جبروت السلطان عبد الحميد ، عند ما شاهد أحرار العرب يقتلون ، وشاهد السلطان عبد الحميد لا يرمى لهم إلاَّ ولا ذمَّة ، لأنهم قد ارتضوا العبودية ، وسكتوا عن مظالمه ، ومما جاء في هذا القصيد قوله :

فلأنت كسرى ما ترى تحريمه كان الحرام وما تحلُّ حلالا
وليُذكرنَّ الدهرَ عدلك باهراً ولتحمدنَّ خلائقاً وفعالا
لو كان في تلك النعاج مقاومٌ تلك لم تجيء ما جئته استفحالا

فالعهد الاستبدادي المظلم الذي عاصره ، وشهد فيه اشلاء المنقوم عليهم يثقلها الحديد وتطرح في أعماق السفور ، ورأى قلم المراقبة التركية ينهال على الصحف . فتقفر حقولها وتقل أعناقها ، علته هذه الاحداث المخيفة ، أن يكون ناقماً يكظم نقمته ، وثائراً يجتر ثورته [٣]

وتشهد قصائد كثيرة أخرى بتغلب عقله على عاطفته ، وهذه القصائد قد نعجب بها ، ولكنها لا تضرب بأوتارها في قلوبنا ، وهذا ما نلمسه في بعض قصائده الوجدانية مثل قصيدته « العالم الصغير مرآة العالم الكبير [٤] التي تحدَّث فيها الى احدى حبيباته ، ولكنه مال عن مناجاتها الى فلسفة ما حوله من احياء الكون ، وقد استهلها بقوله :

---

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٦١

(٢) « المجلة الجديدة - مايو ١٩٣٧ العدد الخامس من السنة السادسة مقال للاستاذ روكس زايد العزيزي بعنوان « خليل مطران وشعره »

(٣) المرجع السابق

(٤) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٩ — وكتابنا « الشعر المعاصر » ص ٧٢

أرأيت صوغ الدرّ في العقيان هذا حباب البن في الفنجان
فلكٌ تمثل شمسُه ومجومه أفلاكنا في السير والدوران
ليلى أجيلي الطرف فيه تنظري سر الكيان وآية الأزمان
تهدي سماواتٍ وسعنَ عوالماً فتانة الابداع والاتقان

***

فهذا التعقل الذي ساد أكثر حياته ولوّن شعره، هو ثمرة من ثمرات حياته الخاصة وضغط المجتمع الذي عاش فيه، فاضطره الى مجاملة الناس في أفراحهم وأتراحهم، ولهذا زخر شعره بالمديح والرثاء والتهاني في محفلات الرفاف، وقد كان أكثر هذا الشعر متكلفاً لانه لم يصدر فيه عن طبيعة أصيلة، ولم يخف الخليل هذه الاعراض التي طرأت على فطرته الأولى، بل عبّر عنها في قصيدة مرفوع الى ناشر الديوان، ضمنه مجاملته الناس في الرخاء والبأساء، واغتفاره زلاتهم، وجريانه، كما يقول على حكم النهى، دون مغالبة القدر[1] ويقول الانصاف ان الخليل، وان هادن في بعض الأحيان فانه لم يهادن مرة على حساب الحق والضمير، كما كان يفعل أدباء جيله، بل استمسك بالحق دائماً، ولم يتقلب مرة أو يتذبذب، وهذه فضيلة يذكرها له الجيل الحاضر الصاعد.

ونعتقد أن «العزيزي» في مقاله خليل مطران وشعره[2]، الذي درجه في المجلة الجديدة عام ١٩٣٧، لم يكن موفقاً في الحملة على الخليل لمجاملته الناس، لأن هذه المجاملة، ليست ملقاً كما ادّعى، انما هي نزول على اعتبارات اجتماعية، ما كان لمثل قلبه الكريم الطيب، أن يزورّ عنها، أو يتحلل منها.

ونحسب أن ما جاء في شعره في الأغراض سالفة الذكر، لا تمثل حقيقته النفسية الأصيلة وإنما الذي يمثل هذه الحقيقة، هو شعره الوجداني الخالص وهو في اعتقادنا شعره الخالد، هو هذا الشعر الذي نبع من شعوره الدفّاق معبراً فيه عن خليقة أصيلة فيه مثل عاصفة الحب ومثل هذا بقصيدته «هل تذكرين» التي حللناها سابقاً، أو معبراً عن انفعال الألم

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٦٢ (٢) المجلة الجديدة «خليل مطران وشعره» للاستاذ روكس زايد العزيزي — شرق الاردن، مايو ١٩٣٧ العدد الخامس من السنة السادسة.

واليأس في مثل قصيدته « الأسد الباكي » التي أسلفنا على ذكرها ، أو معبراً عن انفعالات نفسية وعواطف منوّعة ، كما في رائعته الباقية « المساء » [١] التي تحدث فيها عن حبه ، وآلام نفسه ، وجلال أحياء الكون حوله وقد لفّ خواطره في وحدة كاملة ، ومما جاء في هذا القصيد قوله :

متفردٌ بصبابتي متفردٌ بكآبتي متفردٌ بعنائي
شاكٍ الى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء
والبحر خفّاق الجوانب ضائق كمداً كصدري ساعة الامساء
والأفق معتكر قريحٌ جفنُهُ يغضي على العبرات والاقذاء

وقوله في القصة الثانية :

يا للغروب وما به من عبرة للمستهام وعبرة للرائي
أوليس نزعاً للنهار وصرعةً للشمس بين جنازة الأضواء
أوليس ظمأً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلماء
أوليس محواً للوجود الى مدى وإبادة لمعالم الاشياء
حتى يكون النور تجديداً لها ويكون شبه الموت عود ذكاء [٢]

فهذا القصيد ، يعبر تعبيراً صادقاً عن حالة الرجل النفسية ، وهو بعدها عادة صالحة لتعرف شخصيته ، فهو يكشف بادي الرأي عن حبه المتأصل لطبيعته ، ولهفته لجمال الطبيعة ويُبين لنا قواه التفكيرية وخياله الخصب ، وتمازج هذه القوى بقواه الشعورية ، وفضلاً عن ذلك فإنه يلقي للسيكولوجي ضوءاً ، على طابع شخصية الرجل ، فالقصة الأولى التي أتينا بها قريباً هي تعبير ذاتي عن آلام الرجل ، والقصة الثانية ، هي تعبير موضوعي عن الغروب وما يلابسه من خاطرات ، ومن هاتين ، يمكن القول بأن الخليل حتى في قطعه الوجدانية الذاتية ، يترك التعبير عن نفسه الى التعبير عن الدنيا الخارجة ، فهو في التعبير

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١١٩ (٢) ذكاء = الشمس

الذاتي مثل الانطوائية ، وفي التعبير الموضوعي مثل الانبساطية ، وفي الجمع بينهما في قصيد واحد مثل الطابع المتوسط بينهما [١]

فهو يجمع حظًّا من صفات الانطوائي ، وقسطاً من صفات الانبساطي ، حتى ليتعذر الحكم أي صفات هذين الطابعين تغلب عليه ، ومن صفات الطابع الأول ميله للتأمل ، والتفكير ومقدرته الأدبية ، ومثاليته ، وحبه للعزلة ، ومن دلائل ذلك : قصيدته الطويلة عيد الميلاد[٢] التي بلغت الأربعين بعد المئة بيت ، وفيها قوله :

أحْسِبْ بكل عزلة يأوي إليها الرجُلُ
وإن تكن كحجرتي لا شيء فيها يجمُلُ
في هذه الغرفة أخْلُو للمعاني خَلْوَتي
أسكبُها في عَبراتٍ مُرْقٍ أو حُلْوَة
هنالك الاستقلالُ في أسمى معاني الكلمهْ
لا يَتَهَمُ الانسانُ عينيه ولا يخشى فَمَهْ
أستنزل الوحي لنفع الناس إذ يُسَرُّ لي
وامنع المدوَّ بلا ضنٍّ وأكفي عَذَلي
هناك ألقى الله بل ألقى ضميري آمنا
وليسَ كلٌّ ساكنٍ بيتاً يبيتُ ساكنا [٣]

وقد برزت نزعته الانبساطية في سور عملية شتى من البر والمؤاساة ، وحب الاجتماع وحب العمل ، والتساوق مع الدنيا المتغيِّرة ، وشواهد هذه النزعة في شعره ملموسة في كثير من الموضوعات العامة التي تناولها تناولاً عامًّا مقترناً بالفلسفة الخفيفة ، وفي تصويره الأشياء والشخوص تصويراً واقعيًّا ، وشعره زاخر بالآيات الشاهدة على هذا الاتجاه ، ونكتفي هنا بإيراد بعض ما جاء في قصيدة « السيدة التاجره »[٣] مثالاً على طرقه الموضوعات

(١) كتابنا « الشعر العاصر » ص ٧٣ (٢) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢١٦ إلى ص ٢٥٥
(٣) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٧٣

والسيكولوجية ، فترجم كتاباً في الاقتصاد السياسي ، وكتاب « تعليم الارادة »[1] لبايو Parot وكتاباً في التاريخ الطبيعي لفيكتور « دوري Victor Dury وكانت هذه الترجمات ، كما يقول الاستاذ زكي طليمات لا مثيل لها من حيث سلامة العبارة ، وقوة الاسلوب ، ووضوح المعاني [2] وفضلاً عن هذه الترجمات فقد الف كتاب « مرآة الايام » .

وهذه المجموعات الأدبية الجبارة هي شهادة بالغة على عقلية الرجل المركبة ، وحيويته الدفاقة وعلى ايمانه بالعمل الذي لم يجده بعد سن الاربعين بسنتين في إحدى قصائده الطنينة إذ قال :

يظل المرء في دنيا ... من شغل الى شغل
يُجدّ سُنى وتخليقُها ... على الأعوام كالخلل
ومن سنة الى سنة ... يعاودها بلا ملل
فمن أمل الى يأس ... ومن يأس الى أمل
ولا سعدٌ ولا سلوى ... ولا مجدٌ سوى العمل[3]

* * *

والحق أن الخليل مع تمثيله عصره أجلى تمثيل ، قد سما على دنياه ، وبزّ معاصريه من الادباء في ثبات خلقه ، وكرم نفسه ، وتفانيه في خير الناس ، وكانت شخصيته مزاجاً فريداً من المثالية المحلقة في الخيال ، ومن الواقعية المؤسسة بالجهاد وحب العمل في الحياة ، فقد كان الرجل يسير بقدمين ثابتتين على الأرض ، ورأسه يطوف في السماء ، وقد عاش في صباه شاعراً حراً مبتكراً ، وعاش على الأرض ، رجل دنيا ، كما يقول ، يشاطر الناس أفراحهم وأتراحهم ويعنف على بأسهم وفقرائهم ، ويسخر من حكامهم الظالمين المتنطرين ، وينادي بالشورى وحكم الدستور ، وهو لم يحمل على طبقة من الطبقات ، بل نصب كل طبقة ، وان قرّع في شعره الشعب لاستكانته للظلم فهو تقريع المحب الواثق بسعادته ، وأما من ثلبه

(1) L'Education de la volonté.

(٢) الكتاب الذهبي ، لمهرجان خليل مطران بك ١٩٠٧ ص ٦٣

(٣) قصيدة « تحية عام ١٩٠٣ » — ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٠١

ومصاهاته لكبار الرجال وذوي الجاه والأغنياء، فراجع الى حذره وجبه في كسب قلب كل طبقة.

وقد عبر شعره عن حياته وعن نفسيته تعبيراً صادقاً، فهو شاعر رومانتي يهيم بالحب هياماً، ويشغف بالجمال شغفاً كبيراً، وتبدع ريشته في مجالي الألم أيما إبداع، وقصيدته الوجدانية «مثال في مرآة»[1] مثال للرومانتيكية المبدعة، موضوعاً وأسلوباً لأنه أعرب فيها عن ألمه الخارب لموت حبيبته وبكائه عليها، وانه ليقول في طلاقة أسلوبية، وموسيقى سلسجية:

كنا كغصني دوحة نبتا بل زهرتي غصن تعانقتا
بل جدولين بزهرة عتبا وتساقتا لما تعاشقتا
نار الغرام مع الندى العذب
تمت سعادتنا على قدر فسطت عليها غيرة القدر
أودت معاً بالعين والأثر واستبقت الباقي من الخبر
ذكرى وتبصرة لذي لب

ثم يقول: ماتت وكل ضاحك جذل ما للورى ولمرت من جهلوا
لا قلب يبكيها ولا مقل بل نبلها واللطف والأمل
وشبابها وطهارة القلب
ماتت ونور الفجر مرتسم في الماء فهو أغر مبتسم
والروض زاهر بالندى شبم والطير تصدح فيه والنسم
والزهر والأغصان في لعب

ومن أروع قصائده الرومانتيكية التي يصف فيها ألمه في مرضه قصيدة «الأثر الباقي»[2] وهي في الحق من آثاره الخالدة، وقد جاء فيها قوله:

الله في صدر وهى وتقوّست منه العظام
غار كجوف الغار تملأه المخاوف والظلام

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٨٢ (٢) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٨٨

إلاّ سراجاً حائلاً فيه ينير بلا ابتسام
روح تضيء على ضريح في صميم القلب قام
تحنو عليه كأنه مهد لطفل فيه نام

ومثل هذه اللوعة نجدها في شعره الواقعي-الرومانتيكي ، وبخاصة شعره الوطني ، وأبدع ما وقفنا عليه مثالاً لوجده وألمه ، تصويره أبناء بيروت الذين حصدهم الطليان بمدافعهم في عام ١٩١٢ في قصيدته «اعانة بيروت»[1] التي قال فيها :

بلادي لا يزال هواك مني كما كان الهوى قبل القطام
أقبل منك حيث رمى الأعادي رغاماً طاهراً دون الرغام
وأفدي كل جلمود فتيت وهمّي بقابل القوم الثام
فكيف الشبل مختبطاً صريعاً على الغبراء مهشوم العظام
وكيف الطفل لم يتنل لذنب وذات الخدر لم تهتك لذام

ومع رومانتيكيته المجنحة والممزوجة بالواقع ، فلم يخل شعر الخليل من بذرات الواقعية ، ونلمس ذلك في شعره القصصي ، وشعره الاجتماعي وشعره الشعبي الذي كان يقرع فيه الشعب لاستنامته على أعمال الغاصب ، وعلى عسف الحاكم ، في أسلوب موضوعي ، وأجل ما وقفنا عليه في هذه الناحية مقطوعته « دمعة على الشام »[2] في أيام الطاغية جمال ، وقد جرت في أسلوب واقعي ، مجرّد من الذاتية ، وفيها يقول :

يرقى الثرى ويعيش مغتبطاً شعبٌ على أعدائه خشنُ
شعب يحب بلاده فإذا هانت فما لقائه ثمنُ
تبكي العيون دماً الشام دارسةً في القيد محدقة بها المحن
أنصارٌ أنصار بغيتها وعيون تلك بهم وعتهن
أشقى البشاعي في مرابعه شعبٌ يعيش وما له وطنُ

* *

هذه إلمامة عاجلة عن الرجل الحر الجريء الذي فقدته البلاد العربية ، الرجل ذي البديهة التي كانت تغلي كالمرجل ، والخاطر الذي ينهل كالمطر[3] الرجل الذي حاولت أحداث الحياة ونوازلها أن تحد من شعوره الوثاب ، فتلقى من عزيمته الوقادة ، فبقيت مشاعره وعزيمته

(١) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٠١
(٢) من ألحان شاعر مصر — حافظ ابراهيم — كتاب المنفلوطي « الشعراء الثلاثة »

كالجمرات المتقدة وإن غطتها ذرات الرماد ، الرجل الذي عاش عاكفاً على مجراب أدبه ، وسادناً من سدنة الشعر المبتكر الجديد ، فأوسع صدر العربية للخيال الخلاق ، وأفسح فيه للقصص والتصوير [1] وعلّم جيلاً من الأدباء معنى الشخصية الأدبية ، والطريقة الفنية ووحدة القصيد ، فتأثرت به كوكبة من الموهوبين أمثال خليل شيبوب ، والدكتور أحمد زكي أبو شادي ، والدكتور ناجي ، وإيليا أبو ماضي ، وإلياس فرحات ، وعمر أبو ريشة وغيرهم كثيرون ، تأثروا به تأثراً موضوعياً أو فنياً أو توجيهياً ، فتركت روحانية هذا المعلم — الجبار وقوته الفنية في نفوسهم أبعد الآثار ، وما قام به هؤلاء الأدباء من جديد ، وما تناولوه من موضوعات ، إلا ألق الطبيعي لرسالة الخليل [2] وفي ذلك يقول الدكتور أبو شادي في آخر ديوانه « أنداء الفجر » :

« عرفت محبة هذا الرجل الإنساني وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، إذ تعهدني صغيراً بقيت أهتدي بهديه ، وأثره في شعري أبعد عميق لأنه يرجع الى طفولتي الأدبية ، ويصاحبني في جميع أدوار حياتي ، وإذا كان استقلالي الأدبي متجلياً الآن في أعمالي ، فهو في الوقت ذاته ، يمثل الاطراد الطبيعي لتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الغضة من ذلك الأستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة الوفية ، ناظرة الى آثار الصبا والى معلمي الأول بحنان عميق . . . » [3] .

*

هذه لمحات من آثار الخليل في الأدب والأدباء ، وهذه بعض سماته العالية المتسامية ، وإنا لنشعر شعوراً خالصاً بالألم العميق ، لحرماننا من شخصيته وإن كنا نجد شيئاً من العزاء الحق في تراثه الانساني والأدبي الباقي ، وفي تتويج رسالته التجديدية الجريئة قبيل موته ، وحسب الرجل رضواناً أن تبقى الشعلة الفنية التي أوقدها ، هادية وضاحية إلى التجديد ، بل التجريب في النثر والشعر .

— أثاب الله مطران كفاء ما قدم ... ثار ، وفتح القلوب لفيض ... الخلقية النبيلة .

— وفي ذمة الفن ونور الخلد .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

---

(١) من أقوال شاعر مصر ، حافظ ابراهيم — عن كتاب الدكتور : « الشعراء الثلاثة ... »

(٢) مقالة في آخر ديوان « أنداء الفجر » — للدكتور أبو شادي بعنوان « مطران وأثره في شعري » من ص ١١ — ١٢٨ الطبعة الثانية — يوليو ١٩٣٤ (٣) ديوان أنداء الفجر — ص ١٢٨